يشاركوا في صنع تراث جديد ... ان القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لم يضما جذور النهضة الادبية والفكرية الحديثة في الداخل ، وان كانا قد القيا ببذور اثمرت في الخارج » [٦] . وهكذا لم يكن في مقدور فلسطين ان تنفردبحياة ثقافية متكاملة ومستقلة ، شأنها شأن كل جزء بالنسبة الى الكل الذي ينتمي اليه ، فلا عجب اذن ان تخلو في ظل العثمانيين لهذه الاسباب مجتمعة ، من العوامل التي تبعث النهضات الفكرية والادبية في الامم .

بالاضافة الى هذه العناصر التي تألفت منها صورة الحياة الثقافية في فلسطين ، عرفت البلاد بعض العناصر الاخرى منذ بدايات القرن العشرين ، فظهرت الصحافة الوطنية ؛ اذ انشئت بعض الصحف في القدس وحيفا ويافا وعكا وبيت لحم وسواها من المدن . وأسست كذلك بعض الاندية والجمعيات والحلقات الادبية منذ اواخر القرن التاسع عشر ، ثم نمت نموا لافتا للنظر في النصف الاول من القرن العشرين ، كما كان للاحداث السياسية التي كانت تعتمل داخل الامبراطورية تأثير كبير في حياتها ، وتركت بصماتها واضحة على الحياة الثقافية بخاصة ، وكان من اهم هذه الاحداث اعلان الدستور عام ١٩٠٨ حيث كان قمة لاحداث تمخضت عنها الحياة داخل بلاد السلطنة في الحقبة الاخيرة من حياتها . وكان لهذا الحدث ، مع ما تلاه من تطورات ، أثر كبير في سير الحركة القومية العربية ونشاطاتها واتجاهاتها ، وقد شارك فيها العديدون من ابناء فلسطين ، فكانت لهم ادوار بارزة في تلك الحركة انشاء وتنظيما وتوجيها . والدعوة العربية « لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين ، بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم ، اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها ، فازدادوا تعلقا بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالا اداريا » [٧] . ويمكننا ان نحس بوضوح اضطراب النفسية العربية في فترة العهد الدستوري وما تلاه (ما بين ١٩٠٨ ، ١٩١٤) من خلال نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها ، والمطالبة بتحقيق امانيها . فهذا الشيخ يوسف النبهاني * [٨] ، وهو من اشهر شعراء العصر كما وصفه الامير شكيب ارسلان [٩] ، يصور بعد ايابه من اسطنبول ، الهوان والزراية التي يلقاها العربي في عاصمة الخلافة الاسلامية ، فيقول في قصيدة له يمدح فيها ابا الهدى الصيادي في ايام السلطان عبد الحميد :

ويممت دار الملك احسب أنها ... الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فالفيت فيها امة عربية ... يرى الترك منها ـ امة الزنج ـ اكرما
وما نقموا منا بني العرب خلة ... سوى ان «خير الخلق» لم يك اعجما
بني الترك اني ما تكلمت هاجيا ... ولكن قلبي من جفاكم تكلما [١٠]

---

* ولد في بلدة اجزم بلواء حيفا سنة ١٨٤٩ ، وسافر الى مصر سنة ١٨٦٦ م وقضى في الازهر ست سنوات ، ثم عاد الى عكا ودرس فيها وفي مسقط رأسه . وقصد الآستانة سنة ١٨٧٦ وعمل محررا في «الجوائب» ، ثم عاد الى الشام سنة ١٢٩٦ هـ . جاور في المدينة مدة ، ثم عاد الى بلده حيث مات سنة ١٩٣٢ . له كتب ومؤلفات دينية كثيرة ، ومعظمها في مدح النبي والأولياء الصالحين .